العلاقات الطرابلسية الجزائرية1711-1830م

حسب وصف بعض معاصريها

دراسة مقدمة لمجلة كلية الآداب جامعة بنغازي

الدكتورمفتاح بلعيد غويطة

قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الخمس
جامعة المرقب

العلاقات الطرابلسية الجزائرية1711-1830م

حسب وصف بعض معاصريها(1)

ارتبطت إيالة طرابلس الغرب(ليبيا) والجزائر في العصر العثماني بروابط عديدة، انعكست على طبيعة العلاقات بين الجانبين، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ونحوها. تأثرت هذه العلاقات بمحيطها الإقليمي والمتوسطي والعثماني، والصراعات والتطورات العالمية المصاحبة، وشهدت الفترة المعنية استقلالية الإقليمين وإلى حد بعيد عن اسطنبول، وتزامن هذا مع اشتداد التنافس الاستعماري في منطقة البحر المتوسط، وتزايد الهجمات المسيحية على العدوة الجنوبية للبحر المتوسط، وخاصة على الجزائر وطرابلس، فكان طبيعيا أن تشهد العلاقات بين الطرفين ازدهارا ملحوظا، وعلى مختلف الأصعدة.

وفي الفترة المحددة بالدراسة تمتعت إيالة طرابلس الغرب بحكم وراثي عائلي. توج بوصول القرمانليين للسلطة بطرابلس في سنة 1711م، هذه الأسرة وما أسسته من حكم مستقل ارتبط بعلاقات قوية ودور فاعل مع دول الجوار، كما ارتبط بغيرها من الدول.

كانت إيالة الجزائر من أبرز الولايات العثمانية التي ارتبطت بعلاقات متنوعة مع طرابلس القرمانلية، علاقات دلت على عمق التجاوب بين حكام طرابلس ونظرائهم حكام الجزائر، حيث أسهمت في تقوية الروابط بين الإيالات المغربية فيما بينها وعلاقاتها مع العالم العثماني من جانب، وعلاقاتها مع العالم الأوربي المسيحي من جانب آخر. وفيما يخص العالم المسيحي استوت العلاقات السلمية والعدائية حسب الظروف، لكن سنة 1830م حملت معها حدثا مهما (الاحتلال الفرنسي للجزائر) قضى أو كاد على أنماط العلاقات الطرابلسية الجزائرية العثمانية، ليتم سلخ هذه الإيالة من جسم الإمبراطورية العثمانية، وليضع بذور التواجد الأوربي الاستعماري في المنطقة المغاربية والعربية بشكل عام.

إن الاحتلال الفرنسي للجزائر في السنة المذكورة يعد حدثا لا نبالغ إذا قلنا إنه قد عجل بسقوط الحكم القرمانلي نفسه بعد بضع سنوات، بعد أن كان يعاني وضعا سياسيا واقتصاديا متدهورا للغاية، اقترن بشيخوخة رمز السلطة الوالي يوسف باشا، وعجز المقربين منه عن تسيير دفة الحكم؛ الأمر الذي جعل اسطنبول تتخذ خطوات جادة لإعادة إخضاع طرابلس لحكمها المباشر سنة 1835م؛ خوفا من التهام فرنسا لها إسوة بما فعلته إزاء الجزائر.

---

(1)قدم هذا البحث في الأصل للمؤتمر الدولي الجزائر والعالم العثماني المنعقد بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة بالجزائر(28 - 30 نوفمبر 2010م) ولم ينشر.

إن هذه الدراسة تعنى بدراسة العلاقات الطرابلسية الجزائرية وفق ما جاء في الآثار المكتوبة لبعض معاصري الفترة التاريخية(1711-1830م)، وهؤلاء المعاصرون تمثلوا في مجموعة من الشخصيات، عربية وأجنبية، صناع قرار، ورعية، تجار، ورحالة وساسة ودبلوماسيين، وحتى أسرى وقادة عسكريين، لعبوا دورا في كتابة تاريخها أو وقفوا شهودا عليه، فكتابات هؤلاء وما تركوه من مؤلفات ووثائق ومخطوطات، رغم اختصاصها غالبا بالحديث عن الأوضاع في أحد الإقليمين بمفرده، لكنها لم تسقط علاقات ذات الإقليم بالعالم الخارجي، فرصدت بالتالي العلاقات بمختلف مستوياتها بين الإقليمين؛ هذا الأمر دفعني للخوض فيها، ومحاولة دراستها دراسة جادة، ولما كانت الإحاطة بكتابات كل المعاصرين من الصعوبة بمكان، فقد اقتصرت على عينة من تلك الكتابات لبعض معاصري الفترة، لعلها تفي بالغرض.

إننا من خلال الاعتماد على المادة المصدرية المجمعة من آثار المعاصرين، وبالاعتماد على بعض الدراسات والمؤلفات وحتى الوثائق المفسرة لبعض القضايا والموضحة لبعض الحقائق نحاول دراسة العلاقات الطرابلسية الجزائرية من عدة زوايا، من خلال مجموعة من المباحث الرئيسية نخصص أولها للحديث عن العلاقات السياسية، وثانيها للحديث عن العلاقات الاقتصادية، وثالثها للحديث عن العلاقات الاجتماعية والثقافية، وأخيرا خلاصة تقييمية لهذه العلاقات، امتحانا لفرضية أن هناك علاقات قوية ونشطة بين الإقليمين في تلك الفترة، لم تقتصر على الجانب السياسي وحسب، بل شملت الجوانب الأخرى، وخاصة الجانب التجاري والثقافي، مما انعكس وبشكل كبير على التطورات التي شهدتها طرابلس والجزائر في الفترة اللاحقة، في ظل التجاور العثماني الفرنسي في منطقة المغرب العربي، وتزايد الاهتمام الاستعماري بليبيا لاقتطاعها من الإمبراطورية العثمانية[2].

أولا: التعريف بأهم المصادر المستخدمة:

تعد المصادر المعنية في هذه الدراسة قليلة لكنها مفيدة، وهي تمثل نماذج كافية. لقد شعرت في البداية أن لا توجد هناك مصادر كافية، كما لا توجد علاقات واضحة بين الجزائر وطرابلس في هذه الفترة، لكن كتابات المعاصرين ومؤلفاتهم كانت كثيرة، وإن كانت المعلومات المشتملة عليها تلك المصادر قليلة لكنها أوفت بالغرض، مما أمكنني أن أبرز صفحة مهمة من تاريخ العلاقات الطرابلسية الجزائرية في الفترة المعنية، ولعل من أبرز المؤلفات والمصادر المعاصرة التي أسعفنا الوقت من الاستفادة منها نذكر ما يلي:

2) لقد بذلت محاولات عدة من قبل الدول الاستعمارية لاحتلال ليبيا بعد السيطرة العثمانية، جاءت امتدادا لسيطرة الأسبان ثم فرسان مالطا على مدينة طرابلس قبل الفتح العثماني، ولعل الصراعات والمجابهات الطرابلسية مع الدول الأوربية وأمريكا خلال فترة الدراسة تمثل صورة من الرغبات الاستعمارية تلك، لكن المحاولات الفرنسية والإنجليزية كانت الأكثر تأثيرا، ووفقا لحساب استعمارية خاصة، قدر لإيطاليا أن تحتل ليبيا أكتوبر 1911م وبمباركة من جل الدول الكبرى وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا.

أ/**الوثائق المعاصرة للفترة**: الوثائق التي اعتمدنا عليها قليلة، لكنها أعطتنا صورة عن العلاقات بين طرابلس والجزائر خلال الفترة المعنية، وهذه الوثائق تتمثل في مجموعة من الوثائق العربية والأجنبية المشار إليها بوثائق قنصلية نابلي بطرابلس، والوثائق الخاصة بالأسرة القرمانلية، والمحفوظة في شعبة الوثائق والمخطوطات بالمركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية بطرابلس.

هناك مجموعة من الوثائق منشورة اعتمدنا عليها نقلا عن بعض المراجع التي اختصت بدراسة تاريخ الفترة، رأينا أهميتها واضحة للتأكيد على حقيقة معينة تتعلق بالعلاقات الطرابلسية الجزائرية.

ب/ **اليوميات**: لعل من أبرز اليوميات التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة كتاب اليوميات الليبية لحسن الفقيه حسن، المولود بطرابلس سنة 1781م على الأرجح، والمحقق والمنشور عن مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية بطرابلس، وعلى الرغم من أن تلك اليوميات تغطي الفترة الأخيرة من الفترة المحددة من الدراسة، أو فترة حكم يوسف باشا لكنها بحكم أن صاحبها كان تاجرا ومقربا من الحاكم، اشتملت على معلومات، قلما نجدها في مصدر آخر، تتعلق بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولما كانت قد أشارت إلى علاقات طرابلسية جزائرية في الفترة المعنية فإنها قد شكلت العمود الفقري لهذه الدراسة[3].

ومن كتب اليوميات أيضا نذكر يوميات الطبيب جوناثان كودري، أحد الأمريكيين الأسرى لدى الباشا، فقد كان كودري من ضمن البحارة الذين أسرتهم البحرية الطرابلسية على متن السفينة فيلادلفيا، وأتيحت له بحكم تخصصه في الطب الاحتكاك بالمجتمع بمدينة طرابلس، خلال الفترة1803-1805م، وأشار من ثم لبعض القضايا الخاصة بالعلاقات الطرابلسية الجزائرية في عهد يوسف باشا القرمانلي[4].

ج/ **المؤلفات**: كان من أبرز المؤلفات لشخصيات معاصرة للفترة نذكر ريتشارد توللي، صاحبة كتاب عشر سنوات في بلاط طرابلس، والذي هو عبارة عن رسائل كتبتها توللي وكانت ترسلها لصديقة لها في بريطانيا خلال الفترة 1783 – 1793م، اشتمل هذا الكتاب على سرد لما رأته وسمعته وشاهدته الآنسة الإنجليزية توللي، حيث قدر لها من خلال إقامتها

---

(3) انظر التعريف بالمؤلف مقدمة كتاب حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية الجزء الأول 1551-1832، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس2001، ط/2، ص17-32.

(4) انظر مقدمة كتاب: يوميات الطبيب جوناثان كودري في قلعة طرابلس الغرب 1803-1805م، ترجمة وتعليق: عبد الكريم أبو شويرب، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1982، ص13-15.

بمبنى القنصلية الإنجليزية بطرابلس ولمدة عشر سنوات أن تعايش المجتمع الطرابلسي والتفاعلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المؤثرة في حياة ذلك المجتمع، ومن ثم تضمن كتابها الكثير من المعلومات عن علاقة طرابلس بالجزائر[5].

وما يقال عن توللي يقال عن زوجة القنصل الهولندي بطرابلس السيدة فرانسجي فان بروجيل، وما كتبته من ملاحظات ومشاهدات خلال إقامتها بطرابلس 1827-1833م. جمعها ونشرها القس بيرك تحت عنوان ست سنوات في طرابلس على الساحل المغاربي، اهتمت فيه السيدة بروجيل بكل أوجه الحياة التي عايشتها، وما وضح لها من علاقات ربطت طرابلس بالجزائر في تلك الفترة[6].

د/الرحلات: شكلت الرحلات مصدرا مهما لدراسة الفترة، حيث دون هؤلاء الرحالة عرب وأجانب انطباعاتهم ومشاهداتهم عن مجمل الحياة في طرابلس أو الجزائر أو هما معا، وتطرقوا بشكل مباشر وغير مباشر للعلاقات بين الجانبين خلال الفترة المقصودة بالدراسة. ولعل من أبرز هذه الرحلات رحلة الألماني فريدريك هورنمان، من القاهرة حتى فزان وعاصمتها مرزق سنة 1797م[7]، ورحلة الأسباني باديا لبليك دومنيقو_ الذي أسمى نفسه (علي بك العباسي) _ إلى طرابلس 1806/1805م، انطلاقا من مراكش ومرورا بطرابلس ثم الاتجاه نحو المشرق العربي والعودة ثانية إلى أوربا[8]، ورحلة الإنجليزي جون فرانسيس ليون، من طرابلس إلى فزان سنة 1818م[9]، ورحلة الحاج ابن الدين الأغواطي الجزائري، في شمال أفريقيا، والتي يرجح أنها تمت خلال سنتي 1826-1828م، وصل فيها الأغواطي إلى غدامس، وزار مجموعة من المدن الجزائرية في الجنوب الشرقي، وغدامس ومناطق ليبية أخرى، ومناطق تونسية قبل عودته لبلاده[10] .

---

[5] ريتشارد توللي، عشر سنوات في بلاط طرابلس، نقله إلى العربية: عمر الديراوي أبو حجلة، دار الفرجاني، طرابلس – القاهرة- لندن، د . ت.

[6] القس م. أز بيرك، ست سنوات في طرابلس على الساحل المغاربي(1833-1826)، ترجمة: أيمان فتحي، دار الفرجاني، طرابلس، ط/1، 2010 .

[7] فريدريك هورنمان، يوميات فريدريك هورنمان الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام 1797، تعريب: مصطفى محمد جودة، دار الفرجاني، طرابلس ،1993، ص15-21.

[8] علي بك العباسي، رحلة إلى طرابلس 1805-1806م، ترجمة وتحقيق ومناقشة: قاسم الجميلي، صفحات من تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2003، ص149-150، 176-177.

[9] جون فرانسيس ليون، مذكرات فرانسيس ليون من طرابلس إلى فزان 1818، تعريب: مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1976.

[10] الحاج ابن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي في شمالي افريقية والسودان والدرعية ترجمها عن العربية إلى الانكليزية وليام ب. هودسون قنصل أمريكا بالجزائر، مؤسسة الترجمة الشرقية بلندن1830، ترجمها إلى العربية

هذه مجموعة من المصادر المهمة التي استقينا منها المادة العلمية، وأخضعناها لإثبات الفرضية المطروحة أو نفيها، ولا يعني أن لا تكون هناك مصادر أخرى قد تم الاعتماد عليها، فالدراسة استعانت بعدة مصادر بشكل مباشر مثل مؤلف عبد الرحمن الجبرتي وابن غلبون، أو اعتمدت على مادة مصدرية لم نعثر عليها، واكتفينا بنقلها من دراسات حديثة اختصت بدراسة تاريخ الفترة.

ثانيا: أنواع وأنماط العلاقات الطرابلسية الجزائرية 1711-1830م:

عرفت في هذه الفترة العلاقات الطرابلسية الجزائرية أنماطا وأشكالا عدة، عبرت في شكلها ومضمونها عن حرص الجانبين على تدعيم علاقات حسن الجوار، والحفاظ على الوضع الراهن في منطقة البحر المتوسط. كما أنها عبرت عن وجهة النظر المتقاربة حول العلاقة مع الدولة العثمانية، والدول المسيحية، وخاصة تلك التي تتربص الدوائر بالعدوة الجنوبية للبحر المتوسط، وتتحين الفرص لبسط سيطرتها على طرابلس أو الجزائر أو هما معا، فضلا عن القوى الإقليمية المجاورة في أفريقيا مثل: الحسينيين في تونس، ومحمد علي في مصر، وسلاطين المغرب، وقبائل الطوارق في وسط أفريقيا....إلخ.

1/العلاقات السياسية: تمثلت العلاقات السياسية الطرابلسية الجزائرية في عدة جوانب منها ما يلي:1/التمثيل الدبلوماسي المتبادل بين الجانبين: لقد كان للقطرين تمثيل متبادل دبلوماسي أو ما يشبه التمثيل القنصلي، وفي هذه الفترة كان من ضمن السلك الدبلوماسي والقنصلي والتجاري بطرابلس ممثل للجزائر، كما هو الحال بالنسبة لتونس والمغرب، أما أوربا فكان لها عشر قناصل عامون، من أبرزهم القنصل الفرنسي والإنجليزي والهولندي وقنصل سردينيا وقنصل نابولي. بالإضافة إلى هؤلاء كان لأمريكا قنصل عام، وهؤلاء جميعا كانوا قناصل معتمدين لدى حكومة يوسف باشا حاكم طرابلس[11].

ونشرها: أبو القاسم سعد الله في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط/2، 1990، ج/2، ص244-250.

[11] بيرك، مصدر سابق، ص47؛ أيضا: جوناثان كودري، مصدر سابق، اليومية المؤرخة في 26 مايو1805م، ص81. وللمزيد عن نشأة التمثيل القنصلي في العصر الحديث ووظائف ومهام القنصل انظر: L. A ,Balboni, Gl'Italiani nella Civiltà Egiziana del Secolo XIX°, Alessandria,V:III, 1906, pp136-140.

أيضا: شرح المحققين: محمد الأسطى وعمار جحيدر، في اليوميات الليبية، مصدر سابق ص 179-180؛ أيضا: أنجلو سان ماركو، الشرق الحديث الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بمحمد علي وأرشيفات الدولة الإيطالية، ضمن كتاب الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا ، ترجمة: عماد البغدادي، منشورات

ولم تسعفنا مصادرنا بذكر ممثل طرابلسي بالجزائر عدا ما ذكره صاحب اليوميات الليبية بأنه كان محمد بن علي قاسم المرابط وكيلا ليوسف باشا بالجزائر عند وقوع الغزو الفرنسي سنة 1830م[12]. لكن الواضح أن وجود ممثل جزائري بطرابلس كان يناظره وجود ممثل طرابلسي في الجزائر، يجمع بين المهام التجارية والسياسية والدبلوماسية ونحوها. وقد عبرت عن هذا التمثيل والتقارب تلك الزيارات المتبادلة وتبادل الهدايا والوفود، فقد ارتبطت طرابلس والجزائر على المستوى الدبلوماسي بروابط عدة، وكان باشوات طرابلس سباقين إلى إرسال الوفود والهدايا إلى دايات الجزائر، والحال يصدق على دايات الجزائر، وطبقا لرسالة الآنسة توللي المؤرخة في 10 مارس1790م فإنها أشارت إلى قدوم شاويش جزائري إلى طرابلس منذ بضعة أيام، وكان مبعوثا من قبل داي الجزائر إلى طرابلس في مهمة خاصة[13].

وتضيف توللي أن هذا المبعوث كان فظا ومزعجا، وخلال زيارته لطرابلس طلب من علي باشا القرمانلي باشا طرابلس آنذاك طواشيا أسود لحساب الداي، ولما رفض الباشا سرق الشاويش مبتغاه، وصعد به المركب لكن رجال الباشا تمكنوا من استعادته قبل الإقلاع[14].

ومن الجائز أن يكون مبعوث الداي قد جلب معه هدايا خاصة للباشا، كان الأخير قد طلبها من داي الجزائر، فأراد الشاويش أن يأخذ من الطيور والحيوانات من حديقة الباشا ما أراد لسيده، يفسر هذا أن رسالة الآنسة توللي المؤرخة في 2 سبتمبر 1790م ذكرت فيها أنه كان لدى الباشا أسد ونمران عظيمان، أحضرهما من الجزائر، يود تقديمها كهدايا إلى السلطان العثماني، وقد كانت عناية الباشا بهذه الحيوانات كبيرة، حيث أعد لها أقفاصا خاصة، مصنوعة من عرائض الخشب وقضبان الحديد القوية[15].

وإذا كانت المجاملات موجودة منذ بداية العهد القرمانلي بين باشوات طرابلس ودايات الجزائر فإنها استمرت في أخريات ذلك العهد، بل وكانت قوية أيام حكم يوسف باشا1795-1832م فقد جاء في يوميات حسن الفقيه حسن

المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط/1، 2005، ص 118-126؛ أيضا: سالم علي محمد كتي، البعثات الدبلوماسية والقنصلية.http://www.ahewar.org/debat/show

12) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 1096، ص482.

13) ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص309.

14) المصدر نفسه، ص309-310.

15) ريتشارد توللي، مصدر سابق، 333.

أنه بتاريخ 9 رجب 1232هـ/يونيو 1817م سافر الريس عمر الشلي عن طريق البحر، محملا بهدية من يوسف باشا حاكم طرابلس إلى داي الجزائر، ومصحوبا ببعض الوصفاء والخدم[16].

إن هدية الباشا السابقة جاءت بعيد حملة اللورد أكسماوت على الجزائر سنة 1816م، وهذه الهدية أو المساعدة أشار إليها الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته[17]، كما أشارت إليها الوثائق الفرنسية المعروفة بوثائق الأرشيف الوطني لما وراء البحار بآكس أون بروفنس بباريس، حيث جاء فيها أن طرابلس الغرب كانت تقدم بعض الهدايا إلى الجزائر، فبتاريخ 30 يونيو 1815م أرسل باشا طرابلس الغرب عددا من السفن إلى الجزائر، وبتاريخ 28 مايو 1817م ذكرت الوثائق أن هدية طرابلس الغرب قد وصلت إلى ميناء الجزائر[18].

وفيما يبدو أن باشا طرابلس أرسل إعانة حربية قبل هجوم أكسماوت على مدينة الجزائر، ثم أرسل هدية بعد انتهاء الحرب، وتعد الهدية التي قدمها يوسف باشا للجزائر مساعدة من بلد مسلم لآخر مسلم، جاءت في إطار مساعدة إسلامية عامة؛ لتخفيف الأضرار التي لحقت بالأسطول الجزائري وبعض المنشآت والمباني. وقدمت بعد انتهاء الحرب مع بريطانيا وفرض شروط الهدنة على حكومة الجزائر. ومصداقا لذلك أشار عبد الرحمن الجبرتي والذي غفل عن ذكر طرابلس ومساعدتها من أن الجزائريين شرعوا في بناء ما تهدم بعد انتهاء الحرب مع بريطانيا، وقد وصلتهم مساعدات من سلطان المغرب مولاي سليمان، وحاكم تونس وغيرها، كما وصلتهم مساعدات مشابهة من السلطان العثماني[19].

---

[16]) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية 237 ص 252 . لقد ذكر حسن الفقيه حسن أن عمر الشلي اصطحب معه علي وصيف المؤلف، ولا ندري أيقصد بيعه بالجزائر، أم أرسل الوصيف هدية لداي الجزائر.

[17]) أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار نقلا عن: عمار جحيدر ومحمد الأسطى الهامش رقم 2، اليوميات الليبية، ج/1، اليومية 237 ص 252 ، وأكد المحققان بأن تلك الإعانة قد قدمت لحكومة الجزائر؛ نظرا للخسائر التي منيت بها جراء حملة اللورد أكسماوت وقذف مدينة الجزائر سنة 1816م.

[18]) من وثائق الأرشيف الوطني لما وراء البحار بآكس أون بروفنس بفرنسا الجزء الثالث عشر، ص 63، نقلا: عن عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871، تقديم: روبار منتران، الدار التونسية للنشر، تونس ، ط/1، 1972، هامش 42، ص 241.

[19]) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل ، بيروت، د.ت، مج/3، ص530.

وفي الوقت الذي لم تقتصر فيه المجاملات بين باشوات طرابلس ودايات الجزائر على تبادل الهدايا، بل كان هناك تبادل لرسائل التهنئة، وكذلك رسائل المواساة والتعازي حسب قرابة المتوفي من كرسي الحكم، فهذا يوسف باشا كان قد أرسل رسالة نجهل تاريخها إلى حسين داي حاكم الجزائر يعزيه في وفاة والدته[20].

لقد جرت العادة أن تكون هناك مراسم خاصة لاستقبال حكام الإقليمين للمبعوثين المتبادلين بينهم وحاملي الرسائل، وذلك بإطلاق مجموعة من قذائف المدفعية، سواء من مدفعية القلعة أو من مدفعية الأسطول، كما جرت العادة استقبال مبعوثي الدول ذوي الاعتبار والمصلحة، فهذا مبعوث محمد علي والي مصر بعد أن فرغ من مباحثاته في الجزائر وتونس كان قد وصل مدينة طرابلس بتاريخ 4 ذي الحجة 1244هـ/ يونيو1829م، فاستقبل استقبالا رائعا من طرف الباشا وحكومته برهنت عليه طلقات المدفعية الترحيبية المتعارف عليها حينذاك[21].

على صعيد آخر كان بعض المقربين من الأسرة القرمانلية ينتقلون للعيش في كنف دايات الجزائر، وقد سجلت حالات من هذا القبيل أيام حكم أحمد باشا القرمانلي، رغم أن بعضهم لم يطب له العيش بالجزائر فعاد إلى بلاده، أو اتجه نحو مصر[22]. كما كان المسئولون في حكومة طرابلس يسهلون عملية انتقال الشخصيات الجزائرية ذات الارتباط بحكومة الداي، ويقدمون لها الخدمات حيث ما حلت في الأراضي الطرابلسية، وفي هذا الصدد يقول حسن الفقيه حسن في يومياته:" الاثنين 18 رجب 1243هـ قدم علينا محمد خبول من بنغازي في البر، ومعاه شاوش من الجزاير (الجزائر) كان في الحج، وحطوه بحوش الباشاوات، وبيده جوابات من الرياس (رياس البحر) متاع الجزائر إلى الجزاير"[23].

2/التعاون العسكري والحربي:

---

20) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس، شعبة الوثائق العربية وثائق الأسرة القرمانلية رقم 24، الوثيقة رقم 8، رسالة يوسف باشا القرمانلي إلى حسين باي داي الجزائر غير مؤرخة يعزيه في وفاة والدته .

21) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 853 ص 415.

22) أبو عبد الله ابن غلبون، التذكار فيمن ملك وطرابلس وما كان بها من الأخيار، عني بتصحيحه والتعليق عليه الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط/1، 2004، ص291.

23) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 675 ص365. ويلاحظ على الأسلوب اللغوي أنه قد كتب بالعامية الطرابلسية، فالجزاير تكتب بالعربية هكذا الجزائر وشاوش تكتب شاويش وحطوه الأصح أن يقول وضعوه ...إلخ.

القرصنة أو الجهاد البحري كانت ميدانا واسعا لتعاون طرابلسي جزائري، وخاصة وأنها تمثل مصدرا مهما للخزينة في القطرين، كما أنها كانت تندرج ضمن رغبة السلاطين العثمانيين التضييق على أوربا المسيحية بهذه الهجمات، التي كان ينفذها البحارة المسلمون في شمالي أفريقيا. وتؤكد مصادرنا استعانة باشوات طرابلس بمحاربين جزائريين على ظهر السفن الحربية، ويفهم من يوميات حسن الفقيه حسن أن هناك مقاتلين وموظفين من الجزائر كانوا على ظهر سفن باشوات طرابلس[24].

لقد كانت الحرب الطرابلسية الأمريكية1801–1805م فرصة تجلت فيه أنماط التعاون العسكري والحربي بين الإقليمين، رغم تباين المواقف السياسية من الصراع مع الولايات المتحدة الأمريكية، ففي سنة 1800م أعادت البحرية الليبية سفينة للجزائر بعد أن حررتها من بارجة برتغالية كانت قد أسرتها في عرض المتوسط في وقت سابق[25]. ووفاء من الجزائر للطرابلسيين وصنيعهم سمحت حكومة الجزائر للأسطول الطرابلسي خلال الحرب مع الولايات المتحدة باستخدام الموانى الجزائرية في إجراء عمليات الإصلاح والترميم، والانتظار والتزود بالمئونة ونحوها[26].

ومن الطبيعي أن تشمل تلك المساعدات والخدمات زائري طرابلس من رجال البحر الجزائريين، حيث تقدم لهم التموين والاحتياجات اللازمة؛ لتمكنهم من عملهم في البحر مدة أخرى قبل عودتهم إلى الجزائر. فقد كان باشا طرابلس. نظرا للعلاقات الطيبة التي تجمعه بدايات الجزائر. يوفر كل أصناف الخدمة والمساعدة لبعض الفرق العسكرية الجزائرية، التي كانت أحيانا تزور طرابلس في طريقها إلى اسطنبول أو بلدان المشرق العربي ومصر[27].

3/التوافق في الآراء والمواقف السياسية من الوضع الدولي:

---

24) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليوميات 410، 499 -500، 588 الصفحات: 292، 318-319، 341.

25) جوناثان كودري، مصدر سابق، ص23.

26) المصدر نفسه، ص24.

27) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس شعبة الوثائق العربية وثائق الأسرة القرمانلية رقم 24، الوثيقة رقم 51، رسالة يوسف باشا القرمانلي إلى حسني باشا داي الجزائر بتاريخ 15 رجب 1241هـ بشأن مجموعة العسكر الجزائريين بطرابلس.

يلاحظ على دايات الجزائر وباشوات طرابلس في هذه الفترة التوافق في جل القضايا السياسية، وخاصة ذات التهديد المباشر لاستقلاهما، مع مراعاة المصالح الخاصة، وطبيعة العلاقة مع الدول المسيحية، ومعاملة من يفرض عليها دفع إتاوات وجزية سنوية للإيالات المغربية بشكل عام، أو للجزائر وطرابلس بشكل خاص، فمثلا كانت السفن الأسبانية تقدم للجزائر وطرابلس الهدايا السنوية بعد توقيع أول اتفاقية الصلح مع إيالات المغرب العربي (طرابلس وتونس والجزائر) في ثمانينيات القرن الثامن عشر الميلادي[28].

كانت أبرز المواقف التي تجلت فيها علامات التوافق الطرابلسي الجزائري في أوج صورها الحملة الفرنسية على مصر والشام1798–1801م، فالإيالتان نظرتا للحملة الفرنسية بمنظار المصلحة الخاصة، رغم معارضة عامة الشعب في طرابلس والجزائر للعدوان على دولة الخلافة، ومسلمي مصر والشام من قبل دولة مسيحية، وعبرت تلك العامة عن موقف جهادي تمثل في انضمام الحجاج المغاربة للمقاومين المصريين، إلا أن حكومتي طرابلس والجزائر فضلتا الاستفادة من الحملة الفرنسية ماديا، وبما يعود على الخزينة الطرابلسية والجزائرية بمردود ايجابي فأبدت الحكومتان، وفي الكثير من الأحيان بشكل علني وسري تعاونهما مع الفرنسيين، على الرغم من قطع علاقاتهما السياسية في بعض الفترات مع فرنسا[29]. كانت مظاهر ذلك التعاون قد تمثلت في إرسال شحنات القمح والحيوانات ونحوها، فضلا عن تمكين نابليون بونابرت من الاستفادة من الموانئ والأراضي الجزائرية والطرابلسية، وخاصة بعد اتفاقيات الصلح التي نجحت فرنسا في عقدها مع الجزائر ثم طرابلس[30].

لقد كان باشا طرابلس يوسف باشا ينظر إلى طبيعة الأحداث الجارية في الجزائر بترقب دائم، وكلما نجحت القوى الاستعمارية في خض شوكة الجزائريين وإجبارهم على توقيع اتفاقيات سلام؛ انعكس هذا على باشا طرابلس، فأصبحت مواقفه أكثر ليونة وتساهلا مع الأوربيين؛ خشية أن تحل عليه نقمة الدول المسيحية الكبرى[31].

---

[28] ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص 173.

[29] لقد جرى التنسيق الجزائري الطرابلسي في المواقف من الحملة الفرنسية على قدر هائل من التنظيم، فالداي طلب من يوسف باشا القرمانلي إرسال مندوب من طرفه للتشاور حال تتوفر لديه معلومات أو أخبار أو تطورات بخصوص الحملة الفرنسية على مصر انظر: رسالة القنصل الفرنسي بطرابلس بوسييه إلى حكومته غير مؤرخة نقلا عن: محمد عبد الكريم الوافي، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية على مصر، جامعة قاريونس، بنغازي، ط/1، 1998، ص233.

[30] بخصوص موقف الجزائر وطرابلس من الحملة الفرنسية انظر ما أشارت إليه مصادرنا: عبد الرحمن الجبرتي، مج/2، 405. وفيما يخص موقف يوسف باشا من الحملة الفرنسية على مصر انظر: الوافي، مرجع سابق، ص 107-497.

[31] بيرك، مصدر سابق، ص301.

والقول يصدق على دايات الجزائر إلى حد كبير، فخلال الحرب الطرابلسية الأمريكية وفي الوقت الذي كانت فيه طرابلس في حرب ضروس مع الولايات المتحدة الأمريكية كانت الجزائر على علاقة طيبة مع الجانب الأمريكي، وقد استغل الأخير هذه العلاقة، وخصوصا بعد أن وقعت السفينة الأمريكية فيلادلفيا أسيرة في أيدي البحارة الطرابلسيين، فحاولت أمريكا استثمار علاقتها بداي الجزائر، وإقناعه بالتوسط لإنهاء النزاع مع طرابلس، ومن ثم إطلاق سراح البحارة الأمريكان الأسرى الذين كانوا على متن فيلادلفيا[32].

وعلى هذا المنوال سار ممثل الجزائر بطرابلس، والمسئول عن العلاقات الدبلوماسية معها، فقد رفض استسلام باشا طرابلس للأمريكيين؛ حرصا منه على دوام وساطة بلاده في النزاع الطرابلسي الأمريكي، الذي ستستفيد منه على الأصعدة كافة، ومن ثم أعلن عن رفضه لفكرة التسليم للأمريكيين التي كانت مطروحة للنقاش لدى حكومة طرابلس بعد تصاعد وثيرة القصف الأمريكي للمدينة، واحتلال القوات الأمريكية لمدينة درنة، وفي هذا الصدد قال الطبيب جوناثان كودري في يومياته ما نصه:" سأل الباشا (يوسف باشا القرمانلي) رئيس مجلس بلدية المدينة الذي كان معه في قاعة الاستقبال، ويستشيره حول رفع السلام بالمثل، وقد وافق كلهم ما عدا المسئول عن العلاقات الجزائرية، وأجمعوا بإعلان السلم، كما أبدوا كثيرا من الازدراء لقنصل الجزائر للمشورة التي أبداها، وأضافوا أن أي شخص لا ينصح الباشا في هذه الأزمة برفع علم السلام لا بد من أن يكون عدوا لا صديقا، وفي الوقت ذاته انسحب (الممثل القنصلي)الجزائري وغادر القلعة"[33].

ومن الغريب أن لا ترصد مصادرنا أية وساطة من قبل باشا طرابلس في النزاع بين الجزائر وبريطانيا سنة 1816م، أو أي نزاع آخر بين الجزائر والدول المسيحية الأخرى.

ومن المواضيع التي توافقت فيها الآراء السياسية بين طرابلس والجزائر ما طرأ من أخبار على مسامع المغاربة بشكل عام سنتي 1929/ 1830م مفادها رغبة محمد علي حاكم مصر ضم الإيالات المغربية طرابلس وتونس والجزائر لدولته، ضمن ما عرف عند بعض الباحثين بفكرة الإمبراطورية العربية، التي اعتقد البعض أن محمد علي كان يسعى لتحقيقها[34]،

---

[32]) رسالة توماس جيفرسون إلى داي الجزائر مصطفى باشا بتاريخ9 يونيو 1804 بشأن العلاقات مع الجزائر وإمكانية تدخل الأخيرة كوسيط بين أمريكا وباشا طرابلس مجموعة أوراق توبايز لير القنصل الأمريكي في الجزائر المحفوظة بمكتبة وليام كليمنتز جامعة ميشيقان(آن آربر) الأمريكية منشورة عند أبي القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج/2، ص314، 320.

[33]) جوناثان كودري، مصدر سابق، اليومية26 مايو1805م، ص81.

[34]) للتوسع في هذا الموضوع يمكن مراجعة المراجع الآتية: ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر 1805 ـ 1936، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1972؛ أيضا: عدنان حسين الشيخلي، الفكر القومي العربي في مصر 1882 - 1922، رسالة ماجستير، أجيزت تحت إشراف : أ. أحمد عباس صالح، قدمت لقسم التاريخ، المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، 1980؛ أيضا: فؤاد المرسي خاطر،

وبغض النظر عن صحة ذلك من عدمه فإن هذه الأخبار خلقت حالة من التوترات والاضطرابات في طرابلس والجزائر، وتزايدت مع سماع الجميع بخبر حشد والي مصر للجيوش لتنفيذ مشروعه بغزو طرابلس وتونس[35]، ثم الجزائر.

قال صاحب اليوميات الليبية بخصوص تلك الأخبار:" ليلة السبت10 رمضان 1245هـ/مارس1830م قدمت علينا مركب من القورنة (ليفورنو)، وجابت أوراق من عند حاي موشيك وغيره في قضية محمد علي والي مصر، بأنه طالب الوجاكات الثلاثة تونس والجزائر وطرابلس يبغيهم، وأنه مجهز بالقدوم إليهم بر وبحر، إلى طرابلس وتونس، وأما من الجزائر إن الفرنسيين متكلم معاه، وقال له أنا نهنيك منها، وأن القيرة باقية بينهم والسلام، هذا ما سمعناه من أخبار"[36].

لقد اتخذت الجزائر وطرابلس موقفا متقاربا إزاء هذه الإشاعات أو الأخبار، وفور سماع هذه الأخبار أرسل والي طرابلس يوسف باشا رسالة بتاريخ 17 رمضان 1245هـ/ مارس1830م إلى وكيله بتونس محمد بن علي قاسم؛ لإبلاغ مضمون ما ورد إليه من أخبار لوالي تونس، كما أنه أرسل الحاج عمر التميمي بجواب مستعجل وهام لإبلاغ الداي سيدي حسين باشا داي الجزائر بذات الأخبار، والتشاور معه فيما يجب عمله، وقد شدد الباشا على أنه يجب التعاون، والعمل يد واحدة لدفع العدوان، وأبلغ حاكمي تونس والجزائر باتخاذه الاستعدادات للدفاع عن بلاده وتونس والجزائر[37].

لقد رصدت القنصلية التابعة لنابولي بتونس هذه الحوادث، وجاء في نص الترجمة لرسالة كان قد أرسلها القنصل إلى حكومته:" إن الأخبار الواردة لهذا البلد من جهة الشرق مقلقة، فالكل مقتنعون بأن باشا مصر يريد أن يحتل هذه الولايات، وخاصة ولاية طرابلس، ومن الأدلة على ذلك وصول وفد من الطرابلسيين إلى هنا لطلب المساعدات، والتي لا شك أنها رفضت، لأنه ليس عنده هو ما يعتمد عليه، ثم وصلت سفينتان فرنسيتان أقلعتا بعدها إلى الجزائر، وقد كذب ربانهما تلك الأخبار"[38].

حول الفكرة العربية في مصر " دراسة في تاريخ الفكر السياسي المصري المعاصر"، إشراف: يونـان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985.

35) بيرك، مصدر سابق، ص 163-164.

36) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 1001، ص 457 . وفي ذات الصفحة انظر للمزيد عن الموضوع الهامش 1.

37) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليوميات رقم 1005و1010 ص 459.

38) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس شعبة الوثائق الأجنبية، وثائق نابلي، المجلد 1827-1830، وثيقة غير مصنفة، رسالة قنصل نابلي بتونس إلى حكومته بتاريخ30 مارس 1830.

كان من صالح الفرنسيين عدم إثارة شعور الوحدة بين الإيالات المغربية، وكذلك عدم الاستعداد والتجهز لصد أي هجوم خارجي، وفرنسا تعد العدة لاحتلال الجزائر، وتتحين الفرص لذلك، ومن ثم كانت حريصة على تكذيب تلك الأخبار، وموافاة حكام الإيالات الثلاثة بما عزمت عليه اسطنبول، وما تعزم عليه فرنسا من عقد اتفاقية صلح مع الجزائريين، فكلفت بعض السفن الأمريكية التجارية بإيصال هذه المعلومات إلى باشا طرابلس وتونس والجزائر. وعن هذه الحقيقة ذكر صاحب اليوميات الليبية أنه بتاريخ 29 ذي القعدة 1243هـ/ يونيو 1828م قدمت علي طرابلس من تونس سفينة أمريكية كانت بمالطا حاملة معها خطابات مفادها أن السلطان العثماني عمل اتفاقية صلح وتعاون مع روسيا، وأوضح رغبة الفرنسيين عقد الصلح مع الجزائر، ثم أقلعت قاصدة الجزائر[39].

وعلى أية حال لقيت استغاثة الباشا القرمانلي صداها لدى الحكومتين التونسية والجزائرية، وسرعان ما أرسل كلاهما جوابا لباشا طرابلس حمله مركب واحد، ووصل به طرابلس في 19 ذي القعدة1245هـ/مايو1830م، وكان مما اشتملت عليه رسالة داي الجزائر كما وردت في كتاب اليوميات الليبية:" ... ورد علينا خبر من جانب محمد علي والي مصر وإسكندرية بأنه متوجه إلى جانب الوجاكات (الأوجاق). تعلم محبنا أنك ترد بالك من روحك ومن بلادك ومن ناسك، ونحن إخوان، جميع الذي تحتاج لن عندنا في ذلك زيادة، ونحن مشغولين من جانب اللعين الفرنساوي، وعندنا معاه القيرة، ونترجوا فيه متى يقدم علينا مثل ما عندكم قيرة، ولو كان ما عندنا هذه الشغلة لكنا أرسلنا لكم ناسا، ولكن الخيرة في الواقع والسلام"[40].

وهكذا اكتفى داي الجزائر بتوصية باشا طرابلس بأن يستعد للدفاع، وأن الجزائر بانشغالها بمشاكلها مع فرنسا لا تستطيع أن تقدم المساعدة الكافية لطرابلس. ومن الجائز أن يكون داي الجزائر قد سمع وعلم بأن هذه أخبار مبالغ فيها وليست صحيحة، وربما ركن إلى ما أكده له مندوب محمد على الذي زار الجزائر صيف سنة1829م[41]. كما أنه كان على يقين بأن محمد علي والي مصر لو نفذ مخططه سيكون أمامه الوقت الطويل والعديد من العقبات التي ستمنعه من الوصول إلى الجزائر، وقد صدق حدسه فقد تبين أن القضية ليس لها أساس من الصحة، وأن محمد علي منشغل بأمور دولته ومشاكلها المتعددة[42].

---

39) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 745، ص383.

40) المصدر نفسه، ج/1، اليومية رقم 1043، ص469-470. يلاحظ أن النص ذكر دون تصحيح لغوي حفاظا على الأمانة والدقة في النقل.

41) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 853، ص 415.

42) المصدر نفسه، ج/1، اليومية رقم 1038، ص467..

4/ موقف طرابلس من الاحتلال الفرنسي:

كان يوسف باشا القرمانلي باشا طرابلس وأعضاء حكومته فضلا عن الطرابلسيين بشكل عام قلقين من الأحداث التي أفضت إلى احتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830م، وقد رصدت اليوميات الليبية اهتمام الطرابلسيين بهذا الحدث وإعجابهم بالمقاومة الشعبية الجزائرية، فأشارت اليوميات إلى أنه بتاريخ 2 محرم 1245هـ/4 يوليو1829م أرسل باشا طرابلس الريس محمد الزريق إلى الجزائر للوقوف على حقيقة الأوضاع السائدة في الجزائر، وأخبار النزاع مع فرنسا[43].

وريثما كان الباشا ينتظر وصول أخبار من مبعوثه وصلت إلى طرابلس بتاريخ 20 محرم1246هـ/12يوليو 1830م فرقاطة هولندية قادمة من تونس، أكدت وقوع الاحتلال، ووقوع مجموعة من الاشتباكات بين المدافعين عن المدينة ومشاة البحرية الفرنسية، والتي دارت عند سيدي فرج، وكانت تلك الاشتباكات عنيفة حتى أنه قد استشهد الكثير من الجزائريين، وقتل من الفرنسيين ألف وثلاثمائة[44]، على حد قول ناقلي الخبر.

وهذه الأخبار جاءت مفصلة في رسائل بعث بها وكيل الباشا بالجزائر محمد بن علي قاسم المرابط والحاج محمد الزريق مبعوثه مع قارب تونسي وصل طرابلس 1صفر1246هـ/ 21يوليو1830م، وقد أكدت تلك الأخبار أنه في يوم 24 دي الحجة 1245هـ/ يونيو 1830م قدمت السفن والبوارج الحربية الفرنسية إلى الجزائر، وقصفت عدة أحياء بالجزائر العاصمة بما في ذلك منطقة سيدي فرج، وقد انسحب المقاتلون منها حتى احتلها الفرنسيون، فانقضوا عليهم وحققوا انتصارا باهرا عليهم[45].

لكن هذه الإخبار السعيدة ما لبثت أن تلاشت مع وصول محمد الزريق مبعوث الباشا بتاريخ 5 صفر 1246هـ/ 26 يوليو1830م حيث أكد على أن الجزائر سقطت في أيدي الفرنسيين، مما ترك انطباعا سيئا لدى الأوساط الطرابلسية ومن بقلعة الباشا[46].

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال الجزائر فإن يوسف باشا القرمانلي خشي من مغبة الدخول في صراع مع فرنسا، لا تمكنه الظروف الاقتصادية والدولية من خوضه بنجاح، ومن ثم آثر العمل على تحسين العلاقات مع الحكومة الفرنسية،

---

43) المصدر نفسه، ج/1 اليومية رقم 870 ص420.

44) المصدر نفسه، ج/1 اليومية رقم 1089، ص 480-481.

45) المصدر نفسه، ج/1 اليومية رقم 1096، ص482.

46) حســن الفقيــه حســن، مصــدر ســابق، ج/1، اليوميــات رقــم 1103، 1105، 1156، 1162، 1213، الصفحات484، 497 - 498، 514، 618، 620.

واستغل تنصيب ملك جديد لفرنسا؛ فأرسل بتاريخ 4جمادي الأولى 1246هـ/ أكتوبر1830م رسالة إلى وزير الشئون الخارجية الفرنسية بخصوص إرسال محمد شلبي بيت المال كسفير لطرابلس في تهنئيه ملك فرنسا بمناسبة تنصيبه واعتلائه العرش[47].

ولم يكتف يوسف باشا بهذا فنجده بتاريخ الاثنين7 جمادي الأولى 1246هـ/ أكتوبر1830م قد أرسل إلى باريس وفدا عالي المستوى، ضم الحاج محمد بيت المال و محمد ابن الشيخ سيدي أحمد محسن شيخ البلاد ومحمد المرابط وكيله ومندوبه بالجزائر، وكلفه نقل تحياته ومباركاته للملك الجديد، فضلا عن إجراء المباحثات مع المسئولين الفرنسيين لبناء علاقات قوية، في ظل التطورات الجديدة الناشئة عن احتلال فرنسا للجزائر[48].

2/: **العلاقات الاقتصادية**: وفقا للمصادر التي أطلعنا عليها فإنه كانت هناك علاقات تجارية متواضعة بين طرابلس والجزائر في العصر العثماني، وإذا كانت العلاقات التجارية قد رصدت فإن أنماط العلاقات الاقتصادية الأخرى ونعني بها الزراعة والصناعة كانت معدومة الذكر، فلم تتحدث مصادرنا صراحة عن دور طرابلسي وجزائري مشترك في هذين المجالين كما سنرى.

1/ **العلاقات التجارية**: شهدت فترة الدراسة تنوعا في العلاقات التجارية بين طرابلس القرمانلية والجزائر العثمانية ويمكن من خلال العرض الآتي تسليط الأضواء على هذه العلاقات:

أ/ **السلع التجارية**: تنوعت السلع التجارية المتبادلة بين طرابلس والجزائر في هذه الفترة، وحسب الجدول الآتي فإنه رغم محدودية العلاقات التجارية فإن حركة التبادل التجاري قد اشتملت على أنواع متعددة من السلع والبضائع المختلفة:

جدول رقم(1) السلع التجارية المتبادلة بين طرابلس والجزائر1711-1830م[49]:

نوع السلعة	مصدر السلعة	خط السير	نقطة الوصول والتسويق	التاريخ	السعر / العدد

---

47) المصدر نفسه، ج/1 ، اليومية رقم 1234 ص 518 هامش 2.

48) بخصوص الوفد الطرابلسي انظر: حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 1234 ص 518.

49) أخذت بيانات هذا الجدول من المصادر الآتية: حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليوميات أرقام: 141، 544، 587، 601، 690، 716، 731، 769، 777، الصفحات على التوالي ص 222، 330، 340، 344، 370، 376، 391؟380، 394-395، 626، 731؛ أيضا: اليوميات الليبية، ج/ 2، اليومية 654، ص204؛ أيضا: رحلة الأغواطي، مصدر سابق، ص259، 262 .

القمح	عنابة	عنابة طرابلس كريت	كريت	19دي القعدة1228هـ/ نوفمبر1813م	-
جلود وصابون وملح ومعدات أخرى	الجزائر	شرق المتوسط الجزائر طرابلس	طرابلس	5ربيع الثاني 1241هـ/نوفمبر1825م	في الأصل اشتريت مقابل غنائم بحر بيعت في الجزائر
العبيد	طرابلس	طرابلس تونس الجزائر	-	23محرم1242هـ/ أغسطس1826م و 27 شعبان 1243هـ/ فبراير1828م	مقايضة بمواد تموينية وحاجيات أخرى
قمح وشعير	الجزائر	الجزائر طرابلس	طرابلس	-	-
الشال الكشميري الفاخر والمتوسط	طرابلس	طرابلس عنابة الجزائر	الجزائر	8محرم1244هـ/ 22يوليو1828م	110دورو للشال الكشمير الأفخم واشتريت بالمقابل أحزمة فضية وبرانيس وقنطار شمع أبيض ومواد غذائية منها الكسكسي والمحمصة
الخيول	قسنطينة	قسنطينة تونس طرابلس	طرابلس	-	7خيول
العبيد وتراب الذهب	غدامس	بلاد السودان غدامس توات وادي سوف الجزائر	الجزائر	بشكل موسمي	ثمن العبد والأمة 30دورو وأحيانا تتم المبادلة بالمنتجات والبضائع الآتية من الأسواق الجزائرية عبر غدامس مثل الحديد والزجاج والأقمشة الحريرية ونحوها

من خلال الجدول تبين أن هناك أنواعا من السلع المختلفة المتبادلة بين طرابلس والجزائر أبرزها المواد الغذائية والعبيد والأقمشة ونحوها، وأن بعض السلع كما تقول مصادرنا كان عليها طلب عال في الأسواق الجزائرية، فالشالات الكشميرية مرغوبة لدى الجزائريين والمغاربة بشكل عام[50]. وكان هناك خطان: أحدهما بحري والآخر بري صحراوي، تبرز في الخط

50) فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص125.

الأول موانئ عنابة والجزائر وطرابلس، مرورا بالموانئ التونسية، والآخر تشكل فيه مدينة غدامس الليبية نقطة هامة لرواج وتصريف البضائع والسلع المختلفة الآتية من الجنوب الجزائري إلى فزان أو بلاد السودان والعكس.

وإذا كان رواج السلع بهذا الشكل عبر طريقي البحر والصحراء فإن طريق البر المتمثل بطريق الحج المغربي أسهم هو الآخر في رواج السلع والبضائع المختلفة، ذهابا وإيابا لقوافل الحجيج المغربي، فقد كانت قوافل الحج التي يسهم فيها تجار طرابلسيون وجزائريون يحملون في سفرهم تراب الذهب والقروش الفضية والذرة والقمح والفول والحديد والرصاص وغيرها، ويعودون بمجموعة من السلع من أبرزها قماش الموسلين وريش النعام والشالات والبن العربي والماس والحرير والملابس القطنية والتمور واللؤلؤ وأصناف المربي والمشمش[51].

واللافت للنظر أنه بمناسبة قدوم الحجاج جزائريون وغيرهم ومرورهم بطرابلس العاصمة القرمانلية ذهابا وإيابا يقام معرض تباع فيه الجلود المصنوعة، والشموع والنحاس وجلود الأحذية بكميات كبيرة، وغيرها من المنتجات والسلع الأخرى[52].

وحركة السلع وتبادلها والتي للأسف لا نملك إحصائيات بشأنها لم يقتصر دورها على الوصول إلى طرابلس وحسب، بل تستمر عملية التفاعل التجاري التي يسهم فيها الطرابلسيون والجزائريون متفاعلة حتى وصول القوافل الأراضي المقدسة والعودة ثانية، ففي مصر أشار مؤرخنا الجبرتي في أكثر من موضع من مؤلفه إلى تبادل السلع بين الحجاج المغاربة والمصريين، مشيرا إلى كثرة الحجيج المغاربة وعظمة السلع والبضائع التي يجلبونها وتلك التي يشترونها من المصريين، مع تزايد ارتفاع الأسعار بشكل ملحوظ[53].

---

51) ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص 279-280. وعن مساهمة قوافل الحجيج العابرة طرابلس والمنطلقة من المغرب وتونس والجزائر في ازدهار التجارة انظر: بيرك، مصدر سابق، ص249.

52) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس، شعبة الوثائق الأجنبية وثائق نابلي، المجلد 1808-1826، الوثيقة رقم 155. وبخصوص هذه المعارض الموسمية والتي كانت أكثر فاعلية في فترات الرخاء التي شهدتها طرابلس فإن الرحالة المغربي الصغير في كتابه ص 77 قد ذكر أنه بطرابلس كان يلتقي الركب المغربي مع الركب المشرقي، ويشتري ويقضي المسافرون حوائجهم مستفيدين من رخص الأسعار مقارنة بجهات ومناطق إسلامية أخرى نقلا عن: عبد الكريم كريم، ليبيا في مخطوطات الرحالين المغاربة خلال القرنين 11-12 هـ / 17-18 ، مجلة التاريخ العربي، ص 12004-12043 ضمن الموسوعة الإسلامية الشاملة .

53) عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج2/، ص 550، مج3/ ص335 ،550، 567-568، 577.

ب/ القائمون بالتجارة: لقد أسهم من خلال المصادر المتوفرة لدينا في عملية القيام بالتجارة تجار محترفون من عامة الناس وخاصتهم، وان تركت للقبائل وقافلة الحج الدور الأكبر في تنشيط التجارة بين الإقليمين في إطار ما يعرف بتجارة القوافل :

جدول رقم (**2**) أسماء التجار القائمين بالتجارة بين طرابلس والجزائر خلال الفترة **1711-1830**م[54]:

جنسية التجار	أسماء التجار	الصفة	موطن المتاجرة	نوع التجارة
تجار طرابلسيون	الريس محمد البصكي/ محمد الربع/ ابراهيم باكير/ علي بن حريز/ الحاج حسن الكعامي/ الحاج علي التارزي/ الحاج محمود بن سليمان/ ومحمد بانون/ أحمد الحوات/ الحاج محمد الشيخ الطويل/ الصغير الطويل/ و أحمد الشيباني القصي/ وابن محمد التارزي	بعضهم تجار والبعض الآخر وكلاء تجاريين	بنغازي وعنابة وطرابلس وكريت وقسنطينة والجزائر وتونس ومصر والإسكندرية	مواد غذائية وأقمشة ونحوها
تجار جزائريون	–	–	–	–
تجار عرب	التاجر المغربي الشريف/ أحمد الدزيري التونسي	تجار	قسنطينة وعنابة وتونس وطرابلس	خيول
تجار ذوي أصول مسيحية	القبطان الريس مراد	رئيس البحرية الطرابلسية	الجزائر وطرابلس	يمتهن التجارة من خلال بيع غنائم البحر في الموانئ الجزائرية
تجار مجهولو الجنسية	محمد البارودي/ التاجر خير الله/ حسين الباوصي ومحمود الباوصي أحمد الصنادلي وعليوه البارودي والحاج عصمان الغندوسي	بعضهم تجار والبعض الآخر وكلاء تجاريين	الجزائر وطرابلس وتونس	مواد غذائية وأقمشة ونحوها

54) جمعت البيانات المدرجة في الجدول من: حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليوميات 86، 107، 141، 486، 544 ،587، 601، 654، 690، 713، 716، 771، 777، 796، الصفحات204، 213، 222، 315، 330، 340، 358، 370، 376، 380، 391-392، 394-395، 626.

يلاحظ من خلال الجدول السابق أن معظم التجار كانوا طرابلسيين وقلة منهم كانوا عربا أو مجهولو الجنسية لكنهم ليسوا بالضرورة أن يكونوا من الجزائر، وتفسيرنا لهذا أن التجار الجزائريين يحبذون إجراء تعاملاتهم التجارية مع تونس والمغرب وفرنسا وأسبانيا أكثر من طرابلس والمشرق العربي والإسلامي، كما يلاحظ أن بعض التجار قد احتكروا التجارة مع الجزائر، ومن ثم حسب يوميات حسن الفقيه حسن نراهم كثيري التنقل بين طرابلس والجزائر، بل إن منهم من كانت له وكالات تجارية بالجزائر، ومن أبرزهم: محمد بانون والبارودي والكعامي ومحمود بن سليمان والباوصي وبن حريز وغيرهم[55].

على المستوى الجماعي فإن الحجاج وقوافل الحجاج الجزائريين والمغاربة بشكل عام كانت تعتبر من القائمين على التجارة، وعلى المستوى القبلي، نجد الطوارق قد تحكموا في تجارة جنوب الجزائر مع طرابلس، فهم يقومون كما يذكر الأغواطي بجولات وغزوات في السودان، ويعودون بعدها بالعبيد وغيرهم من البضائع[56]. لقد وصف لنا الرحالة الألماني هورنمان حركة التجارة الجماعية في فزان بقوله:" وتحمل القوافل الآتية من الجنوب أو الغرب إلى جانب البضائع العبيد من الجنسين وريش النعام وجلد النمور وتراب الذهب ... وأما القوافل الآتية من غدامس فإنها تشتغل مثل قوافل طرابلس في الورق والمرجان المقلد والسيوف والقماش المسمى عباءة وغطاء الرأس المصنوع من الصوف الأحمر"[57].

لقد كانت هناك حركة تبادل تجاري نشط بين الغدامسية وقبائل الجنوب الشرقي الجزائري وخاصة منطقة وادي سوف، فقد كانت معظم تجارة هذه القبائل مع غدامس، ففيها يبيعون العبيد، وبعض تجار وادي سوف جعلوا من هذه التجارة حرفة بحيث يذهبون إلى السودان مع التجار من غدامس وذلك بهدف جلب العبيد[58]. وقد أكد الكثير من الرحالة الذين زاروا غدامس على علاقات المدينة التجارية وعلاقة قبائلها بالقبائل الجزائرية، وقيام نشاط تجاري بما تعنيه الكلمة من مدلول، من حيث براعة القيام بالعملية بنشاط تجاري، أثار إعجاب الكثير من أولئك الرحالة[59].

ج/ الطرق التجارية والمواني والمحطات والأسواق:

---

55) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1 اليومية رقم 86، 107، 486، الصفحات204، 213، 315.

56) رحلة الأغواطي، مصدر سابق، ص 262.

57) هورنمان، مصدر سابق، ص87.

58) رحلة الأغواطي، مصدر سابق، ص260.

59) انظر مثلا ما قاله الرحالة الإنجليزي الكسندر جوردون لينج سنة 1825م عن سكان غدامس في اليوميات الليبية ج/1، الهامش رقم 3 ص 251-252 ؛ أيضا: فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص127-128.

لقد رصدت مصادرنا الطرق التجارية والمواني والمحطات والأسواق المشهورة في الإقليمين في هذه الفترة، ومادامت قد ذكرت بهذا الشكل فإنها تمثل أهم المراكز التجارية التي تمت فيها العمليات التجارية الطرابلسية الجزائرية، رغم إحجام المصادر عن إعطائنا تفاصيل أكثر دقة عن تلك العمليات، ولعل الجدول الآتي يعطينا الخطوط العريضة للطرق التجارية وأشهر المواني والمحطات والأسواق:

جدول رقم(3) أهم الطرق والمواني والمحطات والأسواق التي استخدمت بين طرابلس والجزائر 1711-1830[60]:

النوع	الموقع	ملاحظات
الطرق التجارية	الطريق البحري/ الطريق الساحلي/ الطريق الصحراوي	يمتد الطريق البحري من طرابلس وحتى الجزائر مرورا بالمواني التونسية وكريت ومالطا، والطريق الساحلي هو طريق الحجاج، والطريق الصحراوي وادي سوف غدامس مرزق بلاد السودان
المواني والمحطات الأسواق	طرابلس/ غدامس/ مرزق/ تونس/كريت/ بونة (عنابة)/ وبجاية/ وستورة / الجزائر/ قسنطينة	تعتبر عنابة من أبرز المواني الجزائرية تصديرا للقمح والذي يجلب بحرا إلى طرابلس وخاصة في فترة القحط والجفاف.
زمن الرحلة مقاسا باليوم	من الجزائر وحتى طرابلس مباشرة سفر متواصل 9 أيام/ من الجزائر ثم تونس فمالطا فطرابلس 24 يوم/ والسفن والمراكب الصغيرة تقطع المسافة في 10 أيام مباشرة من الجزائر حتى مدينة طرابلس .	معظم السفن المستخدمة إنجليزية أو فرنسية

وهكذا حسب البيانات الواردة في الجدول فإن طرابلس كانت ملتقى لتجارة مغربية أفريقية متوسطية ولها علاقات مع أسواق القاهرة والمشرق العربي[61]، وبطبيعة الحال كان للتجار الجزائريين عبر طرابلس دور فيها، وإن كانت الارتباطات التجارية مع غدامس وفزان ظلت الأكثر مقارنة بالسواحل الطرابلسية.

ويلاحظ أن التجارة الممارسة بين الجزائر وطرابلس والعكس وخاصة البرية والصحراوية غالبا كانت تجارة تتميز بالموسمية أو السنوية، فنظرا لبدائية المواصلات في تلك الفترة، مقارنة بما هي عليه في عصرنا الحالي لم يكن

---

60) أخذت هذه البيانات من: حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليوميات أرقام 771، 919، 1118، 1215، 1218، الصفحات392، 436، 487، 514-515، ؛ أيضا: مجموعة أوراق شيلبورن رقم 19 المحفوظة بمكتبة وليام كليمنتز جامعة ميشيقان(آن آربر) الأمريكية منشورة عند سعد الله، مرجع سابق ج/2، ص317؛ أيضا: فريدريك هورنمان، مصدر سابق، ص87.

61) ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص277.

بمقدور التجار الانتقال بين الجزائر وطرابلس والرجوع ثانية قبل مرور عدة أشهر، ومن ثم فالتجارة المتبادلة هي تجارة موسمية من حيث الزمن، ولا يعني هذا أنه مرة واحدة في العام، بقدر ما يعني أنها كانت ترتبط بمواسم معينة فقط حسب التصنيف الآتي:

1/ **موسم الحج**: وهذا ليس مقرونا بزمن صيفي أو شتوي، وفي هذا الموسم كان الحجيج الجزائري حال وصولهم رفقة الحجيج التونسيين والمغاربة مدنية طرابلس يتخذونها نقطة رئيسية للراحة والاستعداد لمواصلة السفر، بعد إجراء عمليات تبادل تجاري واسعة في ضواحي المدينة تستمر حوالي أسبوعين من الزمن(62).

وتقول الآنسة توللي في هذا الشأن فيما يخص هذه القافلة.:" تبدأ (القافلة) من مدينة مراكش ثم تتنامى بما ينظم إليها من الحجاج والمسافرين أثناء سيرها مساحلة البحر المتوسط من مراكش إلى مصر، وخاصة أولئك الذين ينضمون من الجزائر وتونس وطرابلس، العادة أن تخيم هذه القافلة أسابيع طويلة تحت أسوار طرابلس ثم تنطلق عبر الصحراء إلى الإسكندرية، ويأوي حجاج هذه القافلة داخل خيام متنوعة الأحجام والأشكال والألوان ينصبونها في المرج المنبسط قدام بوابات المدينة، فتبدو في وقتها وكأنها مدينة صغيرة مزوقة الألوان، وهم يأخذون من الطرابلسيين ما يحتاجونه من مؤن وحاجيات، لكنهم نادرا ما يدفعون لذلك ثمنا بالعملة، وإنما يقاضونهم بما يكونون قد جلبوه معهم من أغراض، وبخاصة ريش النعام والجلد المراكشي الشهير"(63).

وإذا كانت طرابلس تتخذ نقطة للحجاج الجزائريين والمغاربة بشكل عام قبل مواصلة سفرهم نحو الأراضي المقدسة فإنها أي طرابلس كانت تتخذ محطة للحجاج الجزائريين والمغاربة المسافرين بحرا، فقد جاء عند صاحب اليوميات الليبية ما نصه:" سافر خليل عريبة إلى الإسكندرية وفيه أي المركب حجاج مغاربة وغيرهم وأحمد بن ميدون ونسيب الحاج إبراهيم بيت المال"(64).

2/ **الموسم الشتوي**: وفيه تبدأ القوافل من السودان رحلتها في بداية السنة، ففي هذا الفصل يتجمع التجار في عدد كبير بهدف السفر مع بعض، والحراسة ضد هجوم الطوارق الذين لا يخضعون لأية حكومة، وتصف الجمال صفوفا وراء بعضها البعض، وكل صف فيه مائتا بعير، وبهذه الطريقة تعبر القوافل الصحراء(65).

---

62) علي بك العباسي، مصدر سابق، ص173. ويقول فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص15-16: إنه كان بطرابلس فنادق أعدت لراحة القوافل المتجهة نحو الشرق.

63) ريتشارد توللي، مصدر سابق، 278.

64) حسن الفقيه حسن، مصدر سابق، ج/1، اليومية رقم 121، ص218.

65) الأغواطي، مصدر سابق، ص259.

وتتجه القوافل من الجنوب الشرقي الجزائري نحو غدامس التي يتفاعل فيها تجار القبائل الليبية والجزائرية في فترة دراستنا، ويتبادلون السلع والبضائع بسوق المدينة وبشكل جعل الرحالة الجزائري الأغواطي يبدي إعجابه بغدامس كمدينة وسكان ووفرة التمور، ويصف سوقها بالعظيم؛ نظرا لكثرة السلع والبضائع والتجار الذين يرتادون ذلك السوق من كل حدب وصوب[66].

وليس بعيدا عن هذا فقد لاحظ الرحالة الألماني هورنمان أن التجارة في فزان مزدهرة إلى حد بعيد، ولكنها تعتمد على ما يصنع خارجها، وفي الفترة مابين أكتوبر وفبراير تصبح مرزق سوقا كبيرا وقبلة للقوافل من القاهرة وبنغازي وطرابلس وغدامس وتواته والسودان، والقوافل الصغيرة من تيبو رشاد والطوارق[67].

2/ **الصناعة والزراعة**: اعتمدت طرابلس على الجزائر في توفير مادة مصنوعاتها، وخاصة الجلود، كما أنها اعتمدت عليها في جلب القمح والشعير وحتى بعض النخيل كغذاء من جانب أو بدرا من جانب آخر، وخاصة في الفترات الشتوية الماطرة واستقرار الوضع المعيشي للطرابلسيين باختفاء شبح المجاعة والأمراض والأوبئة.

ويفهم من مصادرنا أن الجزائر شكلت موردا هاما لبعض الصناعات والحرف في طرابلس في العهد القرمانلي، فبالإضافة إلى ما كانت تجلبه قوافل الحجيج الجزائرية والمغاربة بشكل عام من جلود ونحاس[68]، وهي مهمة للصناعات الجلدية والنحاسية التي تشتهر بها طرابلس، فإن الكثير من التجار الطرابلسيين كانوا يجلبون ضمن السلع التجارية من الجزائر الجلود المدبوغة[69]، والجاهزة للاستعمال في الصناعات الجلدية المختلفة، هذا بخلاف الكتان والنحاس وما يشكل مادة للصناعة الحرفية البدائية في طرابلس القرمانلية.

3/: **العلاقات الاجتماعية والثقافية**:

أ/ **العلاقات الاجتماعية**: كان موسم الحج ميدانا وموسما سنويا يلتقي فيه الطرابلسيون بمسلمي المغرب العربي، تونسيين وجزائريين ومراكشيين، والحجاج الجزائريون وغيرهم يجدونها فرصة لإجراء بعض المبادلات

---

66) المصدر نفسه، ص261

67) هورنمان، مصدر سابق، ص87. انظر عن مرزق والرواج التجاري من قبل القوافل التجارية بما في ذلك الآتية من الجنوب الجزائري فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص78، 83، 87، 122-127. وتجدر الإشارة إلى أن الجبرتي في مؤلفه مج/2، ص 108 أبدى إعجابه بالأغنام الفزانية وقال: إنها عجيبة الخلقة رأسها يشبه رأس العجل. وهذا يؤكد تداولها في الأسواق المصرية بكثرة وهو ما أكده ليون بأنها تسمى مازجري وتباع في مصر بثلاثين دولارا للرأس انظر: ليون، مصدر سابق، ص125.

68) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس، شعبة الوثائق الأجنبية، وثائق نابلي المجلد 1808-1826، الوثيقة رقم 155؛ أيضا: فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص123.

69) ريتشارد توللي، مصدر سابق، 278.

التجارية مع سكان طرابلس، كما أنهم يجدونها فرصة لتقوية علاقاتهم الاجتماعية مع سكان المدينة، وهذه القوافل علاوة على ما ينظم وما يرافقها من حجاج حتى وصولها إلى الأراضي المقدسة كانت مناخا لتقوية أواصر النسب والمصاهرة والتبادل التجاري ونحوها[70].

ومما يؤكد على التضامن الاجتماعي والديني بين الحجيج الجزائري مع الطرابلسيين في إطار تضامن اجتماعي بين الحجاج المغاربة بشكل عام الذين جمعهم الدين الواحد واللغة الواحدة والهدف الواحد أن الحجاج الجزائريين والمغاربة بشكل عام قد اشتركوا في معارك جهادية ضد الهجمات المسيحية التي تعرضت لها طرابلس، وتصادفت مع وجود أولئك الحجاج بها[71]، أو تلك التي عايشوها في أماكن أخرى ومنها مصر، فالحجاج المغاربة كانوا يحافظون على تضامنهم حتى وصولهم الأراضي المقدسة، بل إن طريق حجهم عرف في مصر بدرب المغاربة، وكانت محاربتهم للحملة الفرنسية على مصر 1798-1801م صورة حية للتضامن الاجتماعي مع بعضهم وإخوانهم في مصر[72]، حيث اشترك بعض المغاربة في قتال الفرنسيين.

لقد ذكرت الآنسة توللي الكثير من العادات الطرابلسية، وقارنت بينها وبين نظيراتها في الجزائر، مما يؤكد على حقيقة هامة وهي كثرة الزائرين من الإقليمين لبعضهما البعض، بحيث تسنى لتوللي أن تسمع من الأخوة الجزائريين أو من الطرابلسيين والمغاربة الذين زاروا الجزائر عن الكثير من العادات المتشابهة، فمنها مثلا الانتقام من الخصوم السياسيين، ففي طرابلس كانت تعلق رؤوسهم على أبواب العاصمة طرابلس، أما في الجزائر فكانت تلقى على الأرض بالطرق الرئيسية بالعاصمة؛ ليشاهدها كل المارة، وتمارس إزائها أشد أنصاف الامتهان[73].

---

[70] انظر بالخصوص ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص276-277.

[71] انظر الموقف البطولي والجهادي للحجاج المغاربة جزائريين وتونسيين ومغاربة مع إخوانهم بطرابلس حال هجوم المسيحيين عليها سنة 1096هـ/ 1714م عند الرحالة المغربي (الدرعي ص. 39 نقلا عن: عبد الكريم كريم، مرجع سابق،12004-12043.

[72] نقولا الترك، مخطوطة حملة بونابرت إلى الشرق دراسة وتحقيق أمل بشور، دار جروس برس، طرابلس لبنان، ط/1، 1993، ص134؛ أيضا: عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج/2، ص269؛ أيضا: عزت حسن أفندي الدارندلي مخطوطة ضياء نامة، ترجمة ودراسة: جمال سعيد عبد الغني، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني(مخطوطة نامة للدارندلي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص137، 147.

[73] ريتشارد توللي، مصدر سابق275.

وحسب ما ترويه توللي وهي تقارن بين عادات الجزائريين والطرابلسيين أن الجزائريين لا يحبون الأوربيين، كما أن حكام الجزائر لا يعاملون المسيحيين باللطف والاحترام كالذي يلقونه في طرابلس[74].

ونظر لكثرة الاختلاط بأهالي السودان ومع رواج تجارة القوافل بين الجزائر وطرابلس بشكل خاص والشمال الإفريقي بشكل عام مع بلاد السودان في فترة الدراسة عرفت العديد من العادات في الجزائر وطرابلس، منها كما تذكر المصادر تقديم قهوة الضيوف المسماة بقهوة الزنوج، والتي ذكر ليون أنها تقدم للضيوف في سواحل الدول المغاربية[75].

ب/ العلاقات الدينية والتواصل الثقافي: ترتبط طرابلس والجزائر بالجوار الجغرافي، كما أنهما ترتبطان برابطة الدين واللغة، فالدين الإسلامي والتبعية الشكلية الاسمية لدولة الخلافة الإسلامية أسهم في تقوية الصلات الثقافية فيما بينهما، وأتاح الفرصة في الفترة المعنية بالدراسة لعلامات التقاء بين الجانبين أسهم اتجاه مسلمي الجزائر وطرابلس الغرب نحو الحج أو زيارة الأراضي المقدسة، أو التعليم بالأزهر الشريف في تقوية تلك العلاقات، وفي الأزهر كان هناك رواق المغاربة[76].

كما أسهمت رغبة وتشجيع بعض الحكام القرمانليين في تقوية تلك الروابط، وقد كان بعض الباشوات القرمانليين، وخصوصا أحمد باشا القرمانلي قد بالغوا في تعظيم العلماء وإكرامهم وتقريبهم والإنعام عليهم[77]، وبالتالي كانت طرابلس تعج بالعلماء جزائريين وغيرهم.

وعرفت المدن الطرابلسية بتشجيعها للعلماء، كما أن الكثير من المدن الجزائرية كانت مراكز إشعاع؛ نظرا لما توفر لها من مؤثرات ثقافية أندلسية ومغربية ومشرقية، وإذا كانت طرابلس العاصمة قبلة للعلماء والمثقفين فإن المدن الصحراوية خلافا لما يعتقده البعض كانت كذلك، فغدامس في العهد القرمانلي كما ذكر الأغواطي ذات العلاقات الكبيرة تجاريا واجتماعيا مع بلاد الجنوب الشرقي الجزائري كانت تعج بالعلماء والطلبة[78]، ومن ثم فهي ميدان لنشر الثقافة والعلوم من خلال حلقات التعليم والتلقي والدروس والتجمعات الفكرية والعلمية.

---

74) المصدر نفسه، ص174، 258-260، 445-446. ويذكر أنه قد أشاد العديد من الرحالة الآخرين بحسن تعامل الطرابلسيين مع الأوربيين انظر علي بك العباسي، مصدر سابق، ص167.

75) فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص124.

76) عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج/3، ص347.

77) ابن غلبون، مصدر سابق، ص281، 306.

78) الأغواطي، مصدر سابق، ص261. لقد أشار الرحالة العرب والأجانب الذين زاروا ليبيا في الفترة القرمانلية إلى وجود تطور علمي كبير، تتمثل في مجموعة من الفقهاء والعلماء والمدارس وكثرة المقبلين على الدرس

لقد كانت قوافل الحجيج الجزائري المارة بليبيا علامة على الزيارات واللقاءات الاجتماعية والثقافية بين الجزائريين وإخوانهم الطرابلسيين، خاصة وأن العديد من الحجاج الجزائريين كانوا مثقفين وعلماء وهواة علم[79]، في الفترة المعنية بالدراسة شهدت طرابلس الغرب زيارة مجموعة من الرحالة والعلماء الأفاضل الذين دونوا انطباعاتهم عن طرابلس الغرب، وان كانوا غالبا لم يبدوا اهتماما بالعلاقات بين بلادهم الجزائر وطرابلس الغرب، بقدر ما اهتموا بوصف ما رأوه وشاهدوه خلال مكوثهم بطرابلس، وحتى رجوعهم إلى الجزائر أو الاتجاه شرقا ثم العودة مرورا بطرابلس ثانية، ونذكر من أبرز هؤلاء الرحالة الجزائريين الذين زاروا ليبيا خلال العهد القرمانلي: الرحالة ابن الأغواطي، والرحالة الحسن محمد بن سعيد الورثيلاني (1713-1781الجزائري الذي زار ليبيا سنة1767م، خلال فترة حكم علي القرمانلي[80] .

ثالثا: نظرة تقييمية للعلاقات الطرابلسية الجزائرية في العصر العثماني:

على الرغم من أن العلاقات الطرابلسية الجزائرية كانت موجودة وسجلتها عينة المصادر التي أطلعنا عليها لكنها لم تكن بالقوة التي تجعل استفادة شعبي القطرين منها عظيمة، كما لم تكن لتؤثر في الأحداث التي تشهدها المنطقة كما يجب، وهذا راجع إلى جملة من الأسباب:

1/العامل الجغرافي وطبيعة الوضع الاقتصادي: إذا كانت العلاقات بين السواحل الطرابلسية والجزائرية قليلة فإن الثابت أن هناك علاقات تجارية وحتى اجتماعية قد ربطت الشرق والجنوب الجزائري بفزان وغدامس وغات؛ نظرا لتنامي وازدهار تجارة الصحراء بين طرابلس والجزائر وبلدان السودان، وقد كشفت وثائق تجارة القوافل عن علاقات تجارية ونشطة بين سكان فزان والطوارق من جهة والجزائريين وحكامهم في جنوب الجزائر الفرنسيين بعد سنة 1830م[81]، ودللت عن وجود علاقة تجارية واجتماعية متبادلة في السابق لم ترصدها

وخصوصا في العلوم الدينية والقرآنية انظر: عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص12004-12043 ؛ أيضا: فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص16.

79) عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج/1، ص561.

80) الحسن الورثيلاني نزهة الأقطار في فضل عالم التاريخ والأخبار تحقيق، محمد بن أبي شنيب، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط/2، 1974، وبخصوص هذه الرحلة والجزء المتعلق بليبيا انظر الدراسة القيمة للباحث الجزائري ناصر الدين سعيدوني في مجلة البحوث التاريخية الصادرة عن مركز دراسة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية بطرابلس العدد الأول يناير 1982.

81) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس، شعبة الوثائق العربية، وثائق تاورغاء وتجارة القوافل رقم 170-171، الوثائق أرقام4، 7، 16 . وهي رسائل متبادلة بين الطوارق وحكام الجنوب الجزائري بشأن بعض الأمور التجارية.

المصادر المستخدمة في هذه الدراسة، على الرغم من أنها أشارات إلى تجارة بلاد السودان وما تحمله من التبر والعبيد ليباع في أسواق شمالي أفريقيا.

لكن العامل الجغرافي قد لعب دورا كبيرا في ضآلة العلاقات والصلات الطرابلسية الجزائرية، وخاصة في الجانب الاجتماعي والاقتصادي، وفضل الجزائريون التعامل المباشر مع المغاربة والتونسيين، فضلا عن الأوربيين أو البقاء داخل بلادهم عن التعامل مع الطرابلسيين، كما أنهم فضلوا الاعتماد على الجهاد البحري والغزوات البحرية أو ما يسمى بالقرصنة[82]، والتي ترى فيها حكومة الجزائر أنها توفر المردود الطيب والأسرع للخزينة الجزائرية أكثر من المصادر الأخرى.

وأما طرابلس وأهالي طرابلس فكانوا يمارسون تجارتهم مع مصر والبندقية وليفورنو وتونس ونابلي ومع بلاد السودان أكثر من ممارسة التجارة مع الجزائر، للعامل الجغرافي وطبيعة الحياة الاقتصادية السائدة آنذاك في الإقليمين[83]. ففي طرابلس وخاصة في أواخر حكم يوسف باشا القرمانلي وبعد أن منع مثل الإيالات الأخرى من استرقاق المسيحيين مؤتمر فينا 1815م وأكس لا شابيل 1818م فإن التجارة بطرابلس كانت محتكرة من قبل الباشا نفسه، والضرائب المفروضة على الحركة التجارية كانت باهظة، ووفقا لتقارير قنصلية نابولي بطرابلس فإن يوسف باشا حاكم طرابلس كان يحتكر جل الأصناف التجارية لسداد ديونه، وبالتالي كانت حركة التجارة بطرابلس تشهد ركودا ملحوظا[84]، ووفقا لذات التقارير فإن الوضع الاقتصادي الطرابلسي منهار، والتجارة تعاني ركودا والأسعار فاحشة، والباشا لا يرثي لحال المعوزين، والضرائب كانت مرتفعة على التجار وعلى البضائع الداخلة وعلى السفن[85].

---

82) ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص467. ذكر الجبرتي في هذا الصدد أنه كان لأهل الجزائر صولة واستعداد وغزوات في البحر ويغزون مراكب الإفرنج ويغتنمون منها غنائم ويأخذون منهم الأسرى انظر: عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج3/، ص529.

83) بخصوص التجارة الطرابلسية الخارجية والتي تقل فيها حركة التبادل مع الجزائر وتتزايد مع تونس ومالطا ومصر ونحوها انظر: يوميات حسن الفقيه حسن؛ أيضا: المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس شعبة الوثائق الأجنبية وثائق نابلي المجلد 1827-1830 وثيقة غير مصنفة عبارة عن رسالة قنصل نابلي بطرابس إلى وزير خارجيته بتاريخ 16 مارس 1829م.

84) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس، شعبة الوثائق الأجنبية وثائق نابلي المجلد 1808-1826 وثيقة غير مصنفة عبارة عن رسالة من القنصل الإنجليزي قنصل مملكة الصقليتين وارنجتون إلى حكومة بلاده بتاريخ 30 مارس 1822.

85) المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس، شعبة الوثائق الأجنبية وثائق نابلي المجلد 1808-1826، وثيقة غير مصنفة عبارة عن تقرير من ذي مارتينو قنصل نابلي بطرابلس بتاريخ 16 مارس 1822 عن الوضع الاقتصادي في إيالة طرابلس.

لقد رصدت حالة الاقتصاد الطرابلسي في أواخر سني حكم يوسف باشا زوجة القنصل الهولندي فرانسجي فان بروجيل، والتي أكدت على أنه بسبب الضرائب الباهظة تعرضت التجارة لضغوط شديدة للغاية، وكان الوضع الاقتصادي في طرابلس أثناء حكم يوسف باشا قاتما، حيث تزييف العملة واحتكار التجارة، وفرض الضرائب الباهظة على الأشجار وعلى استخدام الطرقات ونحوها ، ومن ثم لم تكن هناك تجارة بحرية نشطة في طرابلس، كما لا توجد تجارة برية باستثناء حركة تجارية بطيئة بين طرابلس والساحل الذهبي عبر الصحراء الممتدة والطرق الخطيرة التي كانت تسلكها قوافل الإبل بحثا عن تراب الذهب والعاج والذهب وريش النعام والصوف والأصباغ وزيوت النخيل[86].

2/ **التخوف السياسي والتوجهات السياسية:** نحو الغرب للجزائر ونحو تونس وبلاد السودان بالنسبة لطرابلس. كانت سمة التخوف من البلدين طاغية على تفكير جل حكام الإقليمين، فالشعور بالخوف من مساندة جيش عثماني قد يفكر في إعادة الجزائر أو طرابلس إلى الحظيرة العثمانية وارد من قبل الطرفين، والدليل الذي نسوقه على هذا أنه وفقا لرسالة الآنسة توللي المؤرخة في 8 ديسمبر 1791م فإن هناك أخبارا كانت تتردد في طرابلس بأن السلطان العثماني بسبب الوضع المتدهور في طرابلس يفكر في إرسال والٍ تركي تسنده حامية من الجند العثماني وإعادة البلاد للحكم العثماني المباشر[87].

وتضيف توللي أنه قبل سيطرة على برغل على طرابلس كان علي باشا القرمانلي قد أرسل رسولا من طرفه إلى تونس على هجين، وحمله رسائل يشرح فيها أوضاع طرابلس وبؤسها للحكومة هناك[88]، وهذه ليست المرة الأولى التي يفكر فيها القرمانليون الالتجاء إلى تونس بل إنهم كلما شعروا بخطر خارجي عثماني كانت تونس وجهتهم ، وعندما وقعت طرابلس في أيدي علي برغل الجزائري لم يتردد القرمانليون في الالتجاء إلى تونس [89].

إن القرمانليين لم يلتجئوا إلى الجزائر أو المغرب أو مصر، وإنما اختاروا تونس، قد يكون للعامل الجغرافي دور في هذا، لكننا لا نجد تفسيرا في مصادرنا لعدم مساعدة حكام الجزائر للقرمانليين في محنتهم، إن لم يكونوا على علم بنوايا علي برغل الذي قدم في الأساس من الجزائر ، ومن ثم لم تقدم الجزائر أية مساعدات للقرمانليين لطرد علي برغل، رغم أن السلطان العثماني قد أصدر أوامره لحكام الإيالات الأفريقية لإعلان الحرب على المغامر علي برغل، وقد استجاب حاكم تونس، الذي أكرم وفادة القرمانليين وساعدهم بالقوة العسكرية على

---

86) بيرك، مصدر سابق، ص 35-36، 102-103.

87)ريتشارد توللي، مصدر سابق، 382.

88) ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص 430.

89) المصدر نفسه، ص199-201، 455 ، 463.

استعادة حكمهم بطرابلس[90]. وبالتالي لم تستجب حكومة الجزائر بالخصوص، إذا أن المغامر علي برغل كما يقول الجبرتي كان أصله من الجزائر، وكان مملوكا لمحمد باشا حاكم الجزائر[91].

3/ الأمراض والأوبئة والمجاعات وانعدام الأمن والأوضاع الداخلية المتأزمة: عملت الأمراض والمجاعات وانعدام الأمن علي عرقلة العلاقات بين الجزائر وطرابلس، فسنوات المجاعة وانتشار الأوبئة مثل: الطواعين والجذري أدت إلى وفاة الكثير من سكان طرابلس والجزائر، فعزف التجار عن السفر والمتاجرة بل وأقفلت المحال التجارية وخلت الأسواق من روادها، وبالتالي عملت موجات الغلاء والأمراض والقحط عملها في تعطيل العلاقات بين الإقليمين، وخصوصا في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية[92].

وكان انعدام الأمن عائقا لقيام علاقات تجارية واسعة بين الجنوب الجزائري وفزان، فسكان وادي سوف مثلا كما يقول الأغواطي كانوا دائما ينظمون الفرق، ويسلبون العرب أملاكهم، ويصلون بغزواتهم إلى أراضي الطوارق[93].

والطرق الصحراوية الليبية لم تكن بأكثر أمنا من الطرق الرابطة مع الجنوب الجزائري[94]، كما أن الصراعات والحروب الأهلية في الإقليمين قد أثرت على العلاقات بين الجزائريين وإخوانهم الطرابلسيين. إن الحروب والصراعات الداخلية والثورات والانتفاضات التي شهدتها الجزائر وطرابلس، فضلا عن الصراعات مع بعض الدول المسيحية حول ما يسمى بالقرصنة الحرب الطرابلسية الأمريكية، وحملة أكسماوت على الجزائر كلها عوامل قد ضربت النشاط الاقتصادي وخاصة التجاري منه في العمق، كما أنها أفقدت الإقليمين الأمن والاستقرار السياسي، فأثناء الحرب الأهلية بطرابلس 1791-1793م عجزت المدينة عن تلبية حاجة سكانها من اللحوم والمواد الغذائية، وأصبحت تعتمد على ما كان يأتيها من مالطا أو تونس[95]، ولما سيطر علي برغل على مقاليد الحكم بطرابلس استولى على أموال الناس والتجار ونهب ما في المحلات التجارية من بضائع وارتكب

---

[90] المصدر نفسه، ص 465.

[91] عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج/2، ص622.

[92] بخصوص الأمراض والمجاعة في طرابلس حسب ما وردت عند مصادرنا انظر: ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص 467؛ أيضا: بيرك، مصدر سابق، ص141؛ أيضا: المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس شعبة الوثائق الأجنبية وثائق نابلي المجلد 1827-1830، وثائق غير مصنفة عبارة عن تقارير قنصل نابلي بطرابلس إلى حكومته يشرح فيها الأوضاع السائدة بطرابلس في هذه الفترة؛ أيضا: علي بك العباسي، مصدر سابق، ص156.

[93] الأغواطي، مصدر سابق، ص260.

[94] فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص45.

[95] ريتشارد توللي، مصدر سابق، ص 382، 426، 446.

كـل منكـر في المدينـة وصـلت أخبـاره شـرقا وغـربا فعـبر عنهـا الجـبرتي بقولـه:" فلمـا اسـتولى علـي باشـا المـذكور علـى طـرابلس أباحهـا لعسـكره ففعلـوا بهـا أشـنع وأقـبح مـن التمرلنكيـة مـن النهـب وهتـك النسـاء والفسـق والفجـور وسـبي حـريم متوليهـا وأخـذهن أسـرى وفضـحهن بـين عسـكره، ثم طـالبهم بالأمـوال وأخـذ أمـوال التجـار، وفـرد علـى أهـل البلـد وأخـذ أمـوالهم ثم إن المنفصـل (الحـاكم القرمـانلي) حشـد وجمـع جموعـا ورجـع إلى طـرابلس وحاصـره أشـد المحاصـرة، وقـام معـه المغرضـون مـن أهـل البلـدة والمقروصـون مـن علـي باشـا فلمـا رأى الغلبـة علـى نفسـه نـزل إلى المراكب بما جمعه من الأموال والذخائر وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان شبه الرهائن"[96].

وخـلال الحـرب الطرابلسـية الأمريكيـة وفي ظـل الحصـار البحـري الـذي فرضـه الأسـطول الأمريكـي علـى مينـاء المدينـة وسـواحلها أصـبح الوضـع الاقتصـادي متأزمـا؛ فقلـت المئونـة ونظـرا لهـذا الوضـع كانـت طلبـات الباشـا فيمـا يخص افتداء الأسرى الأمريكان مليون دولار لكل أسير أمريكي[97].

ومـا يقـال عـن الوضـع بطـرابلس يقـال عـن الجزائـر سـواء مـن حيـث الأمـراض والأوبئـة، أو مـن خـلال الصـراعات الداخليـة والحـروب وتـوتر العلاقـات مـع الـدول المسـيحية، وبسـبب هجـوم الأسـطول الانجليـزي علـى الجزائـر بقيـادة اللـورد أكسـماوت 1816م قـال عنهـا عبـد الـرحمن الجـبرتي:" ولم يتفـق فيمـا نعلـم لأهـل الجزائـر مثـل هـذه الحادثـة الهائلـة ولا أشـنع منهـا"[98]. والأشـنع مـن هـذا أنهـا حـدث مـن مـداخيل الخزينـة الجزائريـة الـتي تعتمـد علـى القرصـنة وأصـاب الاقتصـاد الجزائـري في العمـق وترتـب عليـه انكمـاش التجـارة الخارجيـة، فـالجزائر قـد وقعـت اتفاقـا مـع بريطانيـا نـص علـى عـدم مهاجمـة السـفن المسـيحية، وقـد فرضـت علـى الإيالات المغربيـة الأخـرى ذات الاتفاقية[99].

وهكـذا علـى الـرغم مـن معوقـات العلاقـات الطرابلسـية الجزائريـة ، أثبتـت عينـة المصـادرة لتـاريخ الفـترة وجـود علاقـات نشـطة وقويـة علـى الأصـعدة السياسـية والاقتصـادية والاجتماعيـة والثقافيـة، علاقـات لعـب أدوارهـا مـن بيـدهم صـنع القـرار السياسـي والتجـار والرحالـة والحجـاج والقبائـل البدويـة والقاطنـة للصـحراء، تلـك العلاقـات بسـبب غيـاب الـوعي وتضـارب المصـالح وطبيعـة العلاقـة مـع الـدول المسـيحية لم تسـتثمر لإقامـة اتحـاد سياسـي واقتصـادي، لا يجمـع الجزائـر وطـرابلس فقـط، وإنمـا يجمـع الإيالات المغربيـة بشـكل عـام، يكـون ممـاثلا لإمبراطوريـة محمـد علـي في مصـر والشـام، ويكـون سـدا منيعـا في وجـه الخطـر المسـيحي الـذي تزايـد منـذ أوائـل القـرن التاسـع عشـر

---

[96]) عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج2، ص622. وللمزيد عن آثار احتلال برغل على الحياة الاقتصادية بطرابلس انظر: ريتشارد توللي 382 - 446.

[97]) رسالة جوناثان كودري لوالده بتاريخ 7 نوفمبر 1804م ضمن يوميات جوناثان كودري، مصدر سابق، ص 20-21.

[98]) عبد الرحمن الجبرتي، مصدر سابق، مج3، ص530.

[99]) بيرك، مصدر سابق، ص 7-8.

الميلادي، وظهر جليا باحتلال الفرنسيين الجزائر سنة 1830م، وتدني سطوة القرمانليين على مقاليد الحكم بطرابلس مما أتاح فقدان طرابلس لاستقلالها وعودتها للحظيرة العثمانية 1835م، لتكون هدفا للاستعمار الأوربي والإيطالي منه بشكل خاص منذ سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي.